

ما آدم؟

د. أحنف الجاجة

في أن آدم ليس اسماً في التاريخ

حين يتردد اسم "آدم"، ينصرف الذهن غالباً إلى شخص عاش في غابر الزمان، أو إلى قصة بدأت بها البشرية ثم انقضت. لكن الحقيقة أن آدم ليس مجرد محطة زمنية عبرناها، بل هو المبدأ الذي لا نزال نعيش فيه. إن سألت "مَن آدم؟" فقد سألت عن تاريخ، وإن سألت "ما آدم؟" فقد سألت عن حقيقة. وتاريخ الأشياء ينتهي، أما حقائقها فباقية.

آدم هو نقطة البدء لا في الزمان فحسب، بل في الوجود. هو اللحظة التي التقى فيها الطين الكثيف بالنفخة العلوية، فصار بينهما برزخ يجمع النقيضين ولا ينحاز إلى أحدهما. ولولا هذا الجمع لكان الوجود إما ملائكة محضاً لا يعرفون ثقل الطين، أو بهائم محضاً لا تدرك خفة الروح. فكان آدم هو الميزان الذي استقرت به كفتا العالم.

في الصورة الجامعة والمرآة الأولى

لم يُخلق العالم ناقصاً ليُكمّله آدم، بل خُلِقَ متفرقاً ليُجمعه. فكل موجود في الكون يحمل صفة من صفات الحق: فالشمس تظهر فيها صفة النور، والجبل تظهر فيه صفة الثبات، والبحر تظهر فيه صفة الاتساع. لكن أياً من هذه الموجودات لم يكن يتسع ليحمل الأسماء كلها. كانت كل حقيقة في الكون بمنزلة مرآة صغيرة تعكس جزءاً من الوجه ولا تعكس كماله.

ثم اقتضت الحكمة أن تظهر مرآة مجلوة تسع الصورة كلها، فكان آدم. فهو "الكون الجامع" الذي انطوت فيه أسرار العالم الكبير. فما من شيء تراه خارجك في الآفاق إلا وله نظير داخلك في الأنفس. ولذلك سجدت الملائكة؛ لم تسجد لشكل من طين، بل سجدت للسر الجامع الذي ظهر في هذا المحل. سجدت للأسماء التي علّمت لآدم ولم تُعلم لهم.

في سر الخلافة والأسماء

الخلافة ليست منصباً يُمنح، ولا سلطة تُفرض بالقوة. الخلافة هي أهلية المحل لظهور صفات المستخلف. وحين قيل "إني جاعل في الأرض خليفة"، كان

المعنى أن الأرض ستشهد ظهور كائن تتجلى فيه الأسماء الإلهية بوعي وإرادة. فالحيوان يسبح بحمده تسخيرًا، والملائكة تسبح تنزيهاً، أما آدم فيسبح معرفةً وتخلقاً.

وهذا هو معنى "وعلم آدم الأسماء كلها". فالتعليم هنا ليس تلقيناً لكلمات تُحفظ، بل هو إيداع لقابلية التحقق. لقد أودعت في آدم بذور الأسماء كلها: الرحمة، القوة، الجمال، الجلال، العلم، الإرادة. ومهمته ومهمة بنيهِ من بعده ليست اختراع شيء جديد، بل استنبات هذه البذور وتزكيته لتثمر في مرآة الوجود.

في النفس الرحماني والكلمة الفاصلة

الوجود كله ظهر بالنفس الرحماني، الذي تنفس عن الممكنات فأخرجها من ضيق العدم إلى سعة الوجود. وآدم هو الكلمة التامة في هذا النفس. فكما أن الحروف تخرج من جوف المتكلم متفرقة، ثم يجمعها في كلمة واحدة تدل على معنى كامل، كذلك كانت الموجودات حروفاً متفرقة في الكون، فجمعها الحق في "آدم" فصار كلمة تامة تدل على خالقها بأتم دلالة.

ومن هنا كان الإنسان الكامل هو الغاية من إيجاد العالم. فكما أن الثمرة هي غاية الشجرة، وإن كانت تظهر في آخرها، فكذلك آدم هو غاية الوجود وإن

ظهر متأخراً في صورته. هو البذرة الأولى في علم الله، والثمرة الأخيرة في عالم الشهادة.

في العودة إلى الأصل

إن نسيان الإنسان لحقيقته الأدمية هو أصل شقائه. حين يظن أنه مجرد جزء صغير ضائع في كون شاسع، ينسى أنه هو الكون الجامع. وحين يظن أنه جسد يتحرك في الزمان والمكان، ينسى أنه البرزخ الذي يربط الغيب بالشهادة.

فالتريق إذن ليس سعيًا نحو شيء مفقود، بل هو عودة إلى حقيقة منسية. أن تتذكر أنك لست مجرد رقم في حشد البشر، بل أنت امتداد لذلك السر الأول. أن تتذكر أن فيك من نفخة الروح ما يرفعك فوق طينتك، وأن فيك من الأسماء ما يجعلك خليفة إن أنت صدقت في التخلق بها.

في الخلاصة التي تفتح الباب

ما آدم؟ هو المرآة التي صُقلت لتظهر فيها الأسماء. هو البرزخ بين الحق والخلق. هو الكلمة التامة التي نطق بها الوجود. هو أنت، حين تسقط عنك حجب الأوهام، وتدرك أنك لم تُخلق لتكون شيئاً بين الأشياء، بل لتكون الموضع الذي يعي فيه الوجود ذاته. فإن عرفت هذا، عرفت معنى أن تكون إنساناً. وعرفت أن آدم ليس أباً في الماضي، بل هو حقيقة حاضرة تنتظر أن تتجلى فيك.